الفصل الثالث
سياسة نور الدين الخارجية
المبحث الأول
علاقته مع الخلافة العباسية

عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقتفي لأمر الله ٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ/١١٣٦ - ١١٦٠م والمستنجد بالله ٥٥٥ - ٥٦٦هـ/١١٦٠ - ١١٧٠م والمستضيء بالله ٥٦٦ - ٥٧٥هـ/١١٧١ - ١١٨٠م إذ اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك، كافة البقاع الإسلامية الأخرى[١]، وقد ساعد على تمتع الخلافة العباسية بالنفوذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين يحيى بن هبيرة وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاحياتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض فقد ساهمت مؤسسة الخلافة في المقاومة للغزو الصليبي متمثلاً ذلك في دعم نور الدين في أرض الثغور ببلاد الشام دينياً واقتصادياً وسياسياً.. إلخ متوازيا ذلك الدعم مع الضخ الكبير لمعاني الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات وجماهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها وكان من أبرز قيادات الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض عديدة منها روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوغى، وزعامة شعبية روحية مخلصة لدين الله ساهمت في تقوية المقاومة للصليبيين وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة وتحقيق التوازن العسكري ثم التفوق عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون والعسكريون والعلماء الربانيون.

أولاً: الخليفة المقتفي لأمر الله:

هو أمير المؤمنين، أبو عبد الله، محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله بن القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر، الهاشمي العباسي البغددي الحبشيُّ الأم وقد بويع بالخلافة في سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمس مئة [٢].

كان المقتفي عاقلاً لبيباً، عاملاً مهيباً، صارماً، جواداً محباً للحديث والعلم مكرماً لأهله، وكان حميد السيرة، يرجع إلى تدين وحسن سياسة، جدّد معالم الخلافة، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه[٣]، وأقام حشمة الخلافة وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقية وغيرهم، وكان من سلاطين خلافته صاحب خراسان سنجر بن ملكشاه، والملك نور الدين صاحب الشام، وأبوه قسيم الدولة [٤]. ولقب بالمقتفي لأنَّه يقال: إنه رأى النبي ρ وهو في المنام وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٥٨.
(٢) سير أعلام النبلاء (٣٩٨/٢٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤٠٠/٢٠).
(٤) المصدر نفسه (٤٠١/٢٠).

فاقتف بي فصار إليه بعد ستة أيام فُلقِّبَ بذلك لذلك [١].

١ – سياسته الحكيمة:

لم يكن الخليفة المقتفي لأمر الله أكثر حظاً من سلفه من حيث معاملة السلاجقة لـه إلا أنـه كـان دون شك أكثر قابلية ودهاء من الخليفة الراشد بالله، لقد حاول الخليفة المقتفي لأمر الله سياسة اقتناص الفرص من أجل تأكيد سلطة الخلافة والقضاء على النفوذ السلجوقي، كما أنه لم يذعن لطلبات السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه بن أرسلان وقال لـه عندما أرسل وزيره يطلب منه مائة ألف دينار: ما رأينا أعجب من أمرك أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى وإن الراشد ولي ففعل ما فعل ورحل وأخذ ما تبقى ولم يبق إلا الأثاث فأخذته كله! وتصرفت في دار الضرب، وأخذت التركات والجوالي، فمن أي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها فإني عاهدت الله لا آخذ من المسلمين حبة ظلماً فترك السلطان الأخذ من الخليفة وعندما نشب الخلاف بين أمراء السلاجقة استغله الخليفة لصالحه، واستطاع أن يحصل على موافقة السلطان مسعود السلجوقي بإنشاء جيش في بغداد تابع للخلافة مباشرة، وكان ذلك إنجازاً كبيراً للخليفة المقتفي، ثم جاءت وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة ٥٤٧هـ فارتفعت معنويات أهل العراق وأطلقت يد الخليفة لكي يثبت مركزه ويوسع دائرة نفوذه الذي امتد ليشمل الحلة والكوفة وواسط والبصرة ثم تكريت، وتفرغ الخليفة لأحوال العراق الداخلية، فأصلح سور بغداد، ورمم مواضعها الدفاعية، واسترد الإقطاعات السلجوقية، وخرج بنفسه يقاتل من عاداه يساعده في ذلك وزيره المعروف عون الدين بن هبيرة [٢]، فنجح الخليفة الذي دام حكمه ٢٤ سنة في إزالة الكثير من النفوذ السلجوقي في العراق، وعمل على تقوية الجيش، وحفظ الأمن والاستقرار، وأصبح هو الذي يختار من يشاء من الأمراء للسلطة [٣] ويقول ابن الأثير: إن الخليفة المقتفي أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن (زمن القائل) وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه [٤] ومن هنا يتضح أن الخليفة أصبحت بيده السلطة الحقيقية وأن الخلافة علت مكانتها وهيبتها وزاد احترام الأمراء وولاة الأقاليم لها [٥] ومن أراد التوسع في جهود المقتفي لإنهاء التسلط السلجوقي واقتلاعه من العراق وإرجاع الهيبة والقوة والسطوة لمؤسسة الخليفة فليراجع كتاب الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية للأستاذ محمد حسون الجبوري [٦].

(١) البداية والنهاية (٣١٠/١٦).
(٢) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ص ١٤نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن سياسة الخليفة الناصر لدين الله ص ١٤.
(٤) المصدر نفسه ص١٤.
(٥) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ص ١٤.
(٦) الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية محمد الجبوري ص ١٧ إلى ٣١.

٢ – وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله:

قال ابن كثير في أحداث سنة ٥٥٥هـ: فيها كانت وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وأمه نسيم، المدعوة: ستَّ السادة، سمراء من خيار الجواري؛ مرض بالترافي، وقيل: بُدمَّل خرج من حَلْقِهِ. فمات ليلة الأحد ثاني ربيع الأوَّل من هذه السنة عن سِتٍّ وستَّين سنة إلا ثمانية وعشرين يوماً وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ودفن بدار الخلافة ثم نقل إلى التراب، وقد كان شجاعاً مقداماً، يباشر الحروب بنفسه وشاهد الحروب ويبذل الأموال الكثيرة لأصحابه الأخيار وهو أوَّلُ من استبدَّ بالعراق منفرداً عن السلاطين، من أوّل أيام الديلم إلى أيامه، وتمكن من الخلافة وحكم على العسكر والأمراء[١].

ثانياً: الوزير يحيى بن هبيرة:

الوزير الكامل، الإمام العالم العادل عون الدين، يمين الخلافة، أبو المظَفَّر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن الحسن بن جهم، الشيباني الدوريُّ العراقي الحنبلي صاحب التصانيف. ولد عام ٤٩٩هـ ودخل بغداد في صباه، وطلب العلم، وجالس الفقهاء، وتفقه بأبي الحسين ابن القاضي أبي يعلي والأدباء، وسمع الحديث، وتلا بالسَّبع وشارك في علوم الإسلام ومهر في اللغة، وكان يعرف المذهب والعربيّة والعروض، سلفياً أثريا، ثم أمضَّه الفقر، فتعرض للكتابة، وتقدَّم وترقَّى، وصار مشارف الخزانة، ثم ولي ديوان الزَّمام للمقتفي لأمر الله ثم وزر له في سنة ٤٤هـ، واستمر ووزر من بعده لابنه المستنجد [٢] وكان ديناً خيراً متعبداً عاقلاً وقوراً متواضعاً، جِزل الرأي بارّاً بالعلماء، مكباً مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه، كبير الشأن، حسنة الزمان [٣].

١ – سعيه لتقوية مؤسسة الخلافة:

كان مبالغاً في تحصيل التعظيم للدولة، قامعاً للمخالفين بأنواع الحيل، وحسم أمور السلاطين السُّلجوقية [٤] وقد أورد المؤرخون عدة أسباب لتولي ابن هبيرة الوزارة منها أن الخليفة المتقفي لأمر الله كان معجباً بكفايته وشهامته وإخلاصه في أداء عمله [٥]، ومنها أن الخليفة أمر ابن هبيرة - وكان يتولى ديوان الزمام - أن يكتب للسلطان السلجوقي مسعود شكوى في شحنة بغداد الذي لم يكن على وفاق مع الخليفة، فكتب ابن هبيرة رسالة طويلة للسلطان السلجوقي ذكر فيها ما عرف عن سلاطين السلاجقة من حسن الطاعة، والتأدب مع الخلفاء، والحرص على الذب عنهم ممن يحاول النيل منهم، وأشار إلى شكوى الخليفة المقتفي لأمر الله بألا يؤدي أي مبلغ من المال لمحمد شاه بن السلطان محمود، مقابل رفع حصاره عن بغداد، لأن هذا سيكون حافزاً للسلاجقة للمطالبة بالمزيد، وأشار بصرف المبلغ المطلوب، وقدره ثلاثين ألف دينار، في إعداد جيش للخلافة من الترك والأكراد وأهل

(١) البداية والنهاية (٣٩٣/١٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤٢٦/٢٠).
(٣) المصدر نفسه (٤٢٧/٢٠).
(٤) المصدر نفسه (٤٢٨/٢٠).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢٥٣/٢) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٦٠.

بغداد وأعمال العراق لصد قوات محمد شاه، فقبل الخليفة رأي ابن هبيرة وفوضه في إعداد هذا الجيش، فلم تمض أيام قليلة حتى اجتمع عسكر كثير، فخرج به ابن هبيرة لقتال محمد شاه وأصحابه، فهزمهم، فلما أيقن الخليفة بحسن رأي ابن هبيرة استدعاه وولاه الوزارة سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م [١]، قال ابن الجوزي: كان يجتهد في اتباع الصواب، ويحذر من الظلم ولا يلبس الحرير، قال لي: لما رجعت من الحِلَّة، دخلت على المقتفي، فقال لي: ادخل هذا البيت، وَغيرَّ ثيابك، فدخلت فإذا خادم وفرّاش معهم خلع الحرير، فقلت، والله ما ألبَسُها. فخرج الخادم، فأخبر الخليفة، فسمعت صوته يقول: قد والله قلتُ: إنه ما يلبسه. وكان المقتفي معجباً به [٢]، وقام هذا الوزير بدور كبير في تخلص الخلافة العباسية من النفوذ السلجوقي واستعادة سلطة الخلفاء العباسيين في الدولة، وقد استطاع بمساعدة الجيش الذي أعده تخليص العراق وجميع أعماله من سيطرة السلاجقة[٣].

٢ – خوفه من ظلم العباد:

وسأل الوزير ابن هبيرة يوماً الشريف مجد الدين أحمد بن علي الحسيني نقيب نقباء الطالبين عرض رقعة له على الخليفة، وأن لا يهملها، وأن يراجعه فيها فقال: والله ما أهملت لأحد قط رقعة ولا حاجة حضرني ذكرها مُنذ وقفت على ما رواه أبو علي مسكويه أنه رفعت رقعة عن بعض المتظلمين إلى أبي الفضل بن العميد، فوعد رافعها بالنظر في ظلامته فمطله، ثم عاوده، فمطله ثم عاوده فَسوَّفَه، فقال له المتظلم: هذا كلام من لا يعرف دبيب الساعات في انخرام الدول فارتاع أبو الفضل بن العميد لذلك واتعظ به ولان قلبه، وقال: لله درك كيف قلت؟ فأعاد عليه القول، فوقع له بما أراد وآلى أن يرفع ظلامات المتظلمين، وقال: لله درك يا فلان فما نصح لي غيرك، وإنما مثلنا فيما نحن فيه من الأمور السلطانية وما عمر فيها من أهوالها الملهية التي رانت على قلوبنا وأشغلتنا عن حظوظنا مثل مريض ملكته العلة وقسمت قلبه ومنعته عن النظر لنفسه، فيحتاج إلى طبيب حاذق يعنف في موضع العنف ويرفق في موضع الرفق، فقد قالت الحكماء والأطباء: إذا رأيت صاحب الخواطر والهموم وقد استفرغه الهواجس، فصح به صيحة تزعجه وتلهيه عما اجتمع له من المواد السوداوية [٤] وقال: العجب ممن ينظر قبل أن يفعل في النجوم، ويحك انظر وما ترومه فإن كان طلب دنيا فهو فان، وإن كان طلب أخرى فهو باق، وإن كان حسنة فثمرتها السلامة، وإن كان سيئة فثمرتها الندامة [٥]. وقال: شدة الغضب إنما تكون لقوة ذكاء الحواس لأن الذكي يدرك الأسباب الموجبة للغضب بسرعة، فيحتاج إلى زيادة قهر لنفسه في الغضب، وعدم الغضب على الإطلاق عيب لأن الإنسان يجب أن يغضب لله عز وجل [٦]. قال عنه ابن كثير: كان من خيار الوزراء

(١) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٦١.
(٢) سير أعلام النبلاء (٤٢٧/٢٠).
(٣) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٦١.
(٤) أخبار الدول المنقطعة ص ٣٥٩.
(٥) أخبار الدول المنقطعة ص ٣٥٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٥٩.

وأحسنهم سيرة وأبعدهم عن الظلم وكان على مذهب السلف في الاعتقاد [١] وقال عنه ابن العماد: وكان شامة بين الوزراء لعدله ودينه، وتواضعه ومعرفته [٢]، وقال عنه ابن الأثير: كان حنبلي المذهب، ديناً خيراً، عالماً، يسمع حديث النبي ρ، وله في التصانيف الحسنة وكان ذا رأي سديد [٣].

٣ – جهوده في خدمة العلم والعلماء:

قام الوزير ابن هبيرة بعمارة مدرسة بناها بباب البصرة تكاملت في سنة ٥٥٧هـ وأقام فيها الفقهاء ورتب لهم الجراية وكان مدرسهم أبو الحسن البراندسي [٤] وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء ويبذل لهم الأموال فكانت السنة تدور وعليه ديون، وقال: وما وجبت عليَّ زكاة قط وكان إذا استفاد شيئاً من العلم، قال: أفادنيه فُلان فكان ينسب العلم لأهله وهذا من بركة العلم ومن الأمانة العلمية. قال ابن الجوزي: وقد أفدته معنى حديث، فكان يقول: أفادنيه ابن الجوزي، فكنت أستحي، وجعل لي مجلساً في داره كل جمعة، ويأذن للعامة في الحضور، وكان بعض الفقراء يقرأ عنده كثيراً، فأعجبه، وقال لزوجته: أريد أن أزوّجه بابنتي، فغضبت الأُمُّ. وكان يُقرأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر، فحضر فقيه مالكي، فذكرت مسألة فخالف فيها الجمع، وأصرَّ، فقال الوزير: أحمار أنت أما ترى الكُلَّ يخالفونك؟ فلما كان من الغد، قال للجماعة إنه جرى مني بالأمس في حق هذا الرجل ما لا يليق، فليقُل لي كما قلت له، فما أنا إلا كأحِدكم فضبَّح المجلس بالبكاء، واعتذر الفقيه، قال: أنا أولى بالاعتذار، وجعل يقول: القِصاصَ القِصاصَ فلم يزل حتى قال يوسف الدَّمشقيُّ: إذا أبى القصاص فالفداء، فقال الوزير: له حكمه. فقال الفقيه: نِعُمك عليَّ كثيرة، فأي حكم بقي لي؟ قال: لابُدَّ. قال: عليَّ دين مئة دينار. فأعطاه مئتي دينار، وقال: لإبراء ذِمَّتِه، ومئة لإبراء ذمَّتي [٥]. قال ابن الجوزي: كان الوزير يتأسَّفُ على ما مضى، ويندم على ما دخل فيه، ولقد قال لي: كان عندنا بالقرية مسجدٌ فيه نخلة تحمل ألف رطل، فحدثتُ نفسي أن أقيم في ذلك المسجد، وقلت لأخي مجد الدين: أقعُدُ أنا وأنت وحاصلها يكفينا، ثم انظر إلى ما صِرتُ [٦]، وكانت لابن هبيرة جهود علمية ومن أشهرها تأليفه كتاب الإفصاح عن معاني الصحاح شرح فيه صحيحي البخاري ومسلم ومن شروحه الجميلة في هذا التصنيف شرحه للحديث القدسي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ρ: **«إن الله قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي أحبَّ إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب لي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»** [٧]. فقد قال في قوله: ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: لأن التقرب بالنوافل يكون تلو أداء الفرائض، بدليل أنها ذكرت بعد ذكر الفرائض، يعني إذا أدام العبد

(١) المصدر نفسه ص ٣٥٩.
(٢) شذرات الذهب (١٩١/٤).
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن جهود علماء السلف ص ٦٣٨.
(٤) جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري ص١١٧.
(٥) سير أعلام النبلاء (٤٢٩/٢٠).
(٦) المصدر نفسه (٤٢٩/٢٠).
(٧) البخاري، كتاب الرقائق، باب التواضع (١٩٠/٧).

التقرب بالنوافل أفضى ذلك إلى أن يحبه الله. ثم قال سبحانه: (فإذا أحببته كنت سمعه) وهذا لا أراه إلا أنه علامة، وأنه لمن يكون الله قد أحبه أن يكون هو سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها وتصوير ذلك أنه لا يسمع مالم يأذن الشرع في سماعه ولا يبصر مالم يأذن الشرع في إبصاره، ولا يمد يداً إلى مالم يأذن الشرع له في مدها إليه، ولا يسعى برجل إلا فيما أذن الشرع له في السعي بها إليه، فهذا هو الأصل، إلا أنه قد يغلب على عبد ذكر الله حتى يعرف بذلك، فإذ خوطب بغيره لم يكد يسمع لمن خاطبه حتى يتقرب إليه بذكر الله، غير أهل ذكر الله؛ توصلاً إلى أن يسمع لهم، وكذلك المبصرات والمتناولات والسعيُ إليها وتلك طبقة عالية نسأل الله أن يجعلنا من أهلها [١].

٤ – تواصله مع نور الدين زنكي:

كان ابن هبيرة مهتما بدعم نور الدين في جهوده ضد الصليبيين وكان يتابع عن كثب المشروع النوري لفتح مصر وقد حكى ابن المارستانية في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: إنه من عجيب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمس مئة، كأن قمرين أحدهما أَنْوَرُ من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طُول، ويهبُّ أدنى نسيم فيحرَّكُها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجَّب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل النّاس بإمامهم. قال الرجل قد استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برّا تقيّاً، واستيقظ الرّجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبَّر المنام بأنَّ الإمام الذي بمصر يُسْتبدُل به، وتكون لبني العباس لمكان اللَّحية السوداء وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدَّين إلى مصر في أوَّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده [٢].

٥ – وفاته وهو ساجد:

كان ابن هبيرة يسأل الله الشهادة ويتعرض لأسبابها، وفي ليلة ثالث عشر جُمادى الأولى سنة ستين وخمس مئة استيقظ وقت السَّحَر، فقاء، فحضر طبيبه ابن رشادة، فسقاه شيئاً، فيقال: إنه سمَّه فمات، وسقي الطبيب بعده بنصف سنة سُمّاً، فكان يقول: سَقَيْتُ فُسقيت [٣] قال ابن الجوزي:.. ورأيتُ أنا وقت الفجر كأني في دار الوزير وهو جالس، فدخل رجل بيده حربة، فضربه بها، فخرج الدم كالفوَّارة، فالتفتُّ فإذا خاتم ذهب، فأخذته، وقلت: لمن أُعطيه؟ أنتظر خادماً يخرج فأُسلِّمهُ إليه، فانتبهت فأخبرت من كان معي، فما استتممت الحديث حتى جاء رجل، فقال: الرجل: هذا محال، أنا فارقته في عافية أمس العصر، فنفَّذوا إليَّ، وقال لي ولده: لابد أن تغسله فغسلته، ورفعت يده ليدخل الماء في مغابنه، فسقط الخاتم من يده حيث رأيت ذلك الخاتم، ورأيت آثاراً بجسده ووجهه تدلُّ على أنه مسموم وحملت جنازته إلى جامع القصر، وخرج معه جمع لم نره لمخلوق قط وكثر البكاء عليه

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٣٠٣/٧ - ٣٠٤).
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٠١/٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤٢٩/٢٠).

لما كان يفعله من البِرَّ والعدل، ورثته الشعراء [١] وذكر أبو شامة بأنه توفي وهو ساجد في صلاة الصبح [٢]. وقال عنه: وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب [٣]. وقال ابن كثير في أحداث سنة إحدى وستين وخمسمائة: وفيها أظهر الرّوافض سبَّ الصحابة وتظاهروا بأشياء منكرة ولم يكونوا يتمكَّنون منها في هذه الأعصار المتقدِّمة؛ خوفاً من ابنِ هبيرة [٤] رحم الله ابن هبيرة وكثر الله من أمثاله في عصرنا.

ثالثاً: الخليفة المستنجد بالله:

الخليفة أبو المظفَّر يوسف بن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر بن المقتدي العباسي عقد له أبوه بولاية العهد في سنة سبع وأربعين، وعمره يومئذ تسع وعشرون سنة [٥] ولما توفي أبوه بويع له في صبيحة يوم الأحد ثاني ربيع الأوّل من سنة خمس وخمسين وخمسمائة بايعه أشراف بني العباس، ثم الوزير والقضاة والعلماء والأمراء وعمره يومئذ خمس وأربعون سنة، وكان رجلاً صالحاً، وكان ولي عهد أبيه مدة متطاولة ثم عُمل عزاء أبيه، ولمَّا خطب له يوم الجمعة نُثرت الدّراهم والدنانير على الناس، وفرح المسلمون به بعد أبيه، وأقرَّ الوزير ابن هبيرة على منصبه ووعده بذلك إلى الممات، وعزل قاضي القضاة ابن الدامغانيَّ ووَلَّى مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي [٦]، قال ابن النجار: حكى ابن صفية أنَّ المقتفي رأى ابنه يوسف في الحّر، فقال: أيش في فمك قال: خاتم يَزْدَن: عليه أسماء الاثنى عشر، وذلك يسكَّن العطش. قال: ويلك يريد يَزْدَن أن يصيرك رافضياً، سيد الاثنى عشر الحسين رضي الله عنه، ومات عطشان.

ومن شعر المستنجد قوله:

عيَّرتني بالشَّيْبِ وهو وَقَار ::: ليتها عيَّرتني بما هو عار
إن تكن شابت الذَّوائب مِنيَّ ::: فالليالي تزينها الأقمار [٧]

وقال ابن الجوزي، حدثني الوزير ابن هبيرة، حدثني المستنجد قال: رأيت رسول الله ρ في النوم مُنذ خمس عشرة سنة، فقال لي: يبقى أخوك في الخلافة خمساً وعشرين سنة، فكان كما قال، فرأيته قبل أبي بأربعة أشهر، فدخل بي من باب كبير، ثم ارتفعنا إلى رأس جبل، وصلى بي ركعتين، وألبسني قميصاً، ثم قال لي: قل: اللهمَّ اهدني فيمن هديت [٨]، وقال ابن الجوزي: أقرّ المستنجد أرباب

(١) المصدر نفسه (٤٣٠/٢٠) المنتظم (٢١٧/١).
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤٤٠/١).
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤٤١/١).
(٤) البداية والنهاية (٤١٨/١٦).
(٥) سير أعلام النبلاء (٤١٢/٢٠).
(٦) البداية والنهاية (٣٩٤/١٦).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤١٣/٢٠).
(٨) المنتظم (١٩٣/١٠).

الولايات، وأزال المكوس والضرائب [١]، وكان موصوفاً بالعدل والرفق وأطلق المكوس بحيث إنه لم يترك بالعراق مُكساً وكان شديداً على المفسدين [٢]، وقد شفع بعض أصحابه في رجل شرير، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وائتني بمثله لأُريح المسلمين من شرَّه[٣].

– **وفاته**: توفي في ثامن ربيع الآخر سنة ستٍّ وستين وخمس مئة [٤] وكان سبب موته أن خافه أستاذ الدار عضُد الدولة بن رئيس الرؤساء وقايماز المُقتفوي كبيراء الأمراء فواضعا الطبيب على أذيَّته فوصف له الحمّامُ، فامتنع لضعفه، ثم أدخل الحمام، وأغلق عليه، فتلف [٥] وصُلِّي عليه يوم الأحد ودفن بدار الخلافة ونقل إلى التُّراب من الرُّصافة [٦].

رابعاً: الخليفة المستضيء بالله:

الخليفة أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد بن المقتدي الهاشمي العباسي بويع بالخلافة وقت موت أبيه في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مئة وقام بأمر البيعة عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء فاستوزره يومئذ[٧]، وكان ذا حلم وأناة ورأفة وبرّ وصدقات [٨]. قال ابن الجوزي: بويع، فنودي برفع المكوس، ورد المظالم وأظهر العدل والكرم ما لم نره من أعمارنا وفرّق مالاً عظيماً على الهاشميّين [٩] وفي خلافته زالت دولة العبيدية بمصر وخطب له بها، وجاء الخبر فغلقت الأسواق للمسرَّة [١٠]، وخطب له باليمن، وبرقة، وتوزّرَ وإلى بلاد الترك ودانت له الملوك، وكان يطلب ابن الجوزيَّ ويأمره أن يعظ بحيث يسمع، ويميل إلى مذهب الحنابلة، وضعُف بدولته الرّفض ببغداد، وبمصر وظهرت السنة وحصل الأمن ولله المنَّة[١١].

– **وفاته**: كان ابتداء مرضه في أواخر شوّال من هذه السنة فأرادت زوجته، أن تكتم ذلك فلم يمكنها ووقعت فتنة كبيرة ببغداد ونهبت العوامُّ دوراً كثيرة وأموالاً جزيلة، فلمَّا كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوَّال خُطب لولي العهد أبي العباس أحمد بن المستضيء وهو الخليفة الناصر لدين الله، وكان يوماً مشهوداً نُثر الذهب فيه على الخطباء والمؤذَّنينَ ومن حضر ذلك عند ذكره على

(١) المصدر نفسه (١٠/١٩٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤١٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤١٤).
(٣) البداية والنهاية (١٦/٤٤٤).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤١٨).
(٥) المصدر نفسه (٢٠/٤١٤).
(٦) البداية والنهاية (١٦/٤٤٥).
(٧) سير أعلام النبلاء (٢١/٦٨).
(٨) المصدر نفسه (٢١/٦٨).
(٩) سير أعلام النبلاء (٢١/٦٨).
(١٠) المصدر نفسه (٢١/٧٠).
(١١) المصدر نفسه (٢١/٧٠).

المنبر والتنويه باسمه [١]، فلما كان يوم السبت سلخ شوّال مات الخليفة المستضيء بأمر الله، وكان مرضه بالحُمَّى ابتدأ بها في يوم عيد الفطر، ولم يزل الأمر يتزايد به حتى استكمل في مرضه شهراً، فمات، رحمه الله سلخ شوال، وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، وغُسِّل وصُلِّي عليه من الغد [٢]، وكان من خيار الخلفاء أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر، وضع عن الناس المكوساتٍ والضرائب، ودرأ عنهم البدع والمصائب، وكان حليماً وقوراً كريماً، فرحمه الله تعالى وبلَّ ثراه وجعل الجنة مأواه وبويع بالخلافة من بعده لولده الناصر [٣]. وقد كتب ابن الجوزي كتابه المصباح المضيء في خلافة المستضيء ووجهه إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله بهدف التذكير والوعظ والنصيحة باعتباره الشخص الأول في الدولة العباسية[٤].

خامساً: تعاون نور الدين محمود مع الخلفاء العباسيين:

خالف نور الدين محمود سياسة والده عماد الدين زنكي بخصوص العلاقة مع الخلافة العباسية، فقد كانت علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية في أغلب سنوات حكمه، ونشبت الحرب بين الطرفين أكثر من مرّة، ولكن نور الدين محمود وطَّد علاقته بالخلافة العباسية مُنذ بداية حكمه، وتوثقت هذه العلاقة على مرّ السنين حتى نهاية حكمه، ويرجع الاختلاف في هذه السياسة بين نور الدين محمود ووالده إلى عدة أمور أهمها:

– **طبيعة تقاسم السلطة بين نور الدين وأخيه سيف الدين بعد موت والدهما**، فقد تولى سيف الدين غازي (الأكبر) حكم الموصل، فورث ما كان لوالده من علاقات مع الخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة بسلبياتها وإيجابياتها، بينما تولى نور الدين محمود حكم حلب فورث عن والده الجانب المتعلق بالجهاد ضد الفرنجة الأمر الذي يعتبر مصلحة مشتركة بينه وبين الخلافة العباسية على حد سواء وكان أمر سلاطين السلاجقة قد ضعف خاصة بعد موت السلطان مسعود بن محمد عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م وبدأت الخلافة العباسية تستعيد نشاطها في عهد الخليفة بأمر الله (٥٣١هـ - ٥٥٥هـ/١١٣٩ - ١١٦٠م) [٥].

– **والأمر الثاني**: هو أن نور الدين كان يعتبر الخلافة العباسية رمزاً لوحدة المسلمين التي وضعها على رأس قائمة أهدافه الإستراتيجية وهو يدرك ما للخلافة من أثر في نفوس المسلمين، ولذلك سعى لنيل تأييد الخلافة ليضفي على أعماله العسكرية شرعية دينية تساعده في تحقيق وحدة بلاد الشام ومصر وشمال العراق، وفي تحرير سواحل بلاد الشام من الفرنجة المحتلين. من جهة أخرى كانت الخلافة العباسية ترى في نور الدين محمود

(١) البداية والنهاية (١٦/٥٤٠).
(٢) المصدر نفسه (١٦/٥٤٠).
(٣) المصدر نفسه (١٦/٥٤١).
(٤) المصباح المضيء في خلافة المستضيء ص ٩.
(٥) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٣.

الذي اشتهر بحرصه الشديد على تطبيق الشريعة الإسلامية على أصول منهج أهل السنة والجماعة ناصرها وأملها في القضاء على الدولة الفاطمية [١] وقد مرت العلاقات بين الجانبين بعدة أطوار على المستويات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية والثقافية [٢].

١ – الصعيد السياسي:

يلاحظ أن كلا من الطرفين، وجدت لديه دوافع لتوطيد علاقته السياسية بالآخر، وإذ احتاجت الدولة النورية من الخلافة تأييد حكمها للمناطق الخاضعة لها في بلاد الشام والجزيرة، إذ أن تأييد الخلافة لذلك بدعم حكم نور الدين، ويكسبه صفة المشروعية أمام رعاياه في تلك المناطق، ولذلك فقد حرص أشد الحرص على الحصول على تقاليد سيادته السياسية، ومن جهة الخلافة العباسية رأت في الدولة النورية قوة سياسية فعالة في المنطقة، من الممكن أن تجني من ورائها الكثير بتوطيد علاقاتها معها، وحيث إنها صارعت الصليبيين، فإن تأييد الخليفة العباسي لنور الدين كان يجعله محط تقدير بالغ لرعاياه في العراق وخارجه، وعملت الدولة النورية على توطيد علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية عن طريق السفارات الدبلوماسية المتبادلة، وقد حرص نور الدين على اختيار السفراء الذين توافرت فيهم بعض الشروط العقلية والجسمانية، خاصة من عناصر أرباب الأقلام من الفقهاء والعلماء ومنهم من كان من أصل عراقي، لكي يدعم أكثر من غيره الصلات بين الجانبين، وقد حمل أولئك السفراء الرسائل والهدايا لمخاطبة ود خليفة بغداد، واحتوت الرسائل على بعض المطالب أو إظهار الولاء أو التهنئة بمناسبة تولية الخليفة إلى نحو ذلك، ولدينا العديد من أسماء السفراء الذين ترددوا بين العراق والشام، وهؤلاء جميعاً مثلوا عدداً من قيادات الدولة النورية لاسيما في جهازها الإداري [٣] ومن وراء تلك الاتصالات الدبلوماسية، قام ديوان الإنشاء النوري بدور كبير في إعداد الرسائل المناسبة لكل موقف، ولا نزاع أن ذلك الديوان تزايد دوره تعاظماً من خلال خدمته للسياسة الخارجية للدولة، ووجود شخصية مثل العماد الكاتب الأصفهاني على رأسه يدل على مدى نشاطه [٤]، ومن أمثلة الاتصالات الدبلوماسية بين الجانبين أن نور الدين عندما أخضع دمشق لسيطرته عام ٥٤٩هـ/١١٥٢م محققاً بذلك أحد أكبر انتصاراته العسكرية بعث الخليفة إليه عهداً بالسلطة وإقراراً بسيادته عليها [٥] ولا شك أن العباسيين اعتقدوا أن الأسرة البورية السابقة لم تكن تفعل شيئاً معبراً عنهم بفضل مهادنتها لمملكة بيت المقدس الصليبية، كذلك حث الخليفة العباسي نور الدين على السير إلى مصر، لانتزاعها من الفاطميين [٦]. أعداء - أهل السنة - التقليديين - وذلك في وقت كانت فيه مصر في وهن بالغ من جراء سياسة الوزراء العظام الخرقاء.

ويقرر البعض أن الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة أرسل إليه عهداً بتولية مصر وأعمالها في

(١) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص ٢٩٠.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٢.
(٣) من أمثلتهم، العماد الأصفهاني، وكمال الدين الشهرزوري.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٣.
(٥) حسن المحاضرة (٣/٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٤.
(٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٤.

وقت كانت فيه الدولة الفاطمية لا تزال قائمة [١]، ومنطقي أن الخلافة العباسية أدركت أن سيطرة نور الدين على حلب ودمشق تمكنه من تحقيق أهدافها في القضاء على الفاطميين، ومعنى ذلك أن بلاد الشام نفسها كانت ميداناً رحباً لاختبار قدرة الدولة النورية على التغيير السياسي في المنطقة، خاصة في مصر، ولا مراء في أن النجاحات النورية هناك أكدت للعباسيين أن تلك الدولة الفتية، بإمكانها أن تحقق طموحات خلفاء بغداد في تقويض حكم زعماء القاهرة [٢] ومن بعد ذلك استمرت العلاقات السياسية قوية بين الجانبين، واهتبل نور الدين فرصة انتصاره على الصليبيين في عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م، فأرسل إلى بغداد تحفاً وهدايا ورؤوس قتلى الصليبيين وأسلحتهم [٣]، إشارة إلى تأديته لدوره القتالي ضد أعداء المسلمين لكسب دعم العباسيين، وفي أعقاب الظفر على أعدائه في حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م، أرسل إلى الخليفة أخبار انتصاره [٤]، وتكرر ذات الأمر عند سقوط الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/١١٧١م [٥]، وقد عكس الإنجار الأخير مدى نجاح التحالف النوري - العباسي في تحقيق الإنجازات الكبرى ضد أعداء العباسيين وقد استفاد العباسيون من نور الدين محمود، عندما سعوا إلى إعلام دولته بأخبار تولية الخلفاء الجدد، من أجل الحصول على مبايعته لهم، فعندما تولى المستضيء أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ويطلب مبايعته[٦]، وحرص نور الدين على الحصول على تقليد توليه على أملاك مصر والشام وبلاد الجزيرة وتم له ما أراد، فالوضع السابق دل على علاقة الدولة النورية الوثيقة بالعباسيين، وتدعم ذلك من خلال النقوش، إذ وردت على جدران الآثار التي شيدت في عهد الدولة النورية بعض التعبيرات الدالة على قوة الصلات بين الحليفين، إذ وصف نور الدين في نقش يرجع إلى شوال ٥٤٣هـ فبراير - مارس ١١٤٩م في المدرسة الحلاوية بحلب بأنه (رضى الخلافة) وكذلك وصف بأنه (خليل أمير المؤمنين) من نقش يرجع إلى عام ٥٥٩هـ - ٥٦٠هـ/١١٦٣ - ١١٦٤م على باب شرق من أبواب مدينة دمشق [٧]. ووجه تعبير (نصير أمير المؤمنين) في نقش على جامع بمدينة الرقة يرجع إلى عام ٥٦١هـ/١١٦٥م [٨] وكذلك تعبير (ناصر أمير المؤمنين) في نقش على قلعة حلب [٩]. وأيضاً في المدرسة النورية بدمشق يرجع إلى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م وفي قلعة جعبر [١٠]. واستمرت العلاقة السياسية بين الدولة النورية والخلافة العباسية نحو ثلاثين عاماً دون خصومة، بل توطدت باستمرار

(١) العلاقات بين الشرق والغرب ص ٦٦.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٤.
(٣) المنتظم (١٧٦/٩).
(٤) سنا البرق الشامي ص ٧٥.
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٥.
(٦) مرآة الزمان نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٥.
(٧) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٥.
(٨) المصدر نفسه ص ٦٥.
(٩) المصدر نفسه ص ٦٥.
(١٠) المصدر نفسه ص ٦٥.

فأفاد كل طرف من الآخر، ولم تكن لنور الدين تطلعات إلى أملاك الخلافة [١] وتبلورت العلاقات النورية - العباسية في تحالف سياسي قوي أكده بصورة جلية توجيه الخلافة العباسية للسياسة الخارجية النورية، وهذا ما نجده ممثلاً في إسقاط الخلافة الفاطمية، إذ أرسل المستنجد بالله إلى نور الدين في عام٥٦٥هـ/١١٦٩م يستحثه على الإسراع في القضاء عليها [٢]، وقد تكرر ذات الموقف من جانب المستضيء [٣]، ثم دعم العباسيون التوسعات النورية [٤]، ويلاحظ أن ذلك التحالف بين القوتين كان أمراً ضرورياً، ولم يحدث عشوائياً بل إن بغداد وجدت في سلطان حلب أكبر قوة سياسية مسلمة مجاورة لها يمكن أن تحقق أهدافها، خاصة مع عدم تواجد تطلعات مشرقية له، وأفادت الدولة النورية من ذلك التحالف كما أفاد العباسيون واستمر التحالف بين الجانبين على امتداد نحو الثلاثين عاماً مع تعدد الخلفاء العباسيين وذلك لا يخلو من دلالة هامة، وهي أنه كان حيوياً لهم وأن نور الدين لم يجد منهم ما يجعله ينقض ذلك التحالف بل عمل على دعمه طالما أن الخلافة ساعدته على توسعاته الخارجية، وأنه صار رجل الدولة العباسية في المنطقة [٥] كان السعي لوحدة بلاد الشام ومصر أمراً مقرراً في خطط نور الدين وواضحاً في ذهنه مُنذ بداية حكمه، بل إن توجهات نور الدين وأفكاره كانت تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد كان هدفه الإستراتيجي الأكبر إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في هداية البشر وتحقيق الحياة الكريمة لجميع الناس [٦]، وحتى يتحقق هذا الهدف فلا بد من تحقيق الهدف الإستراتيجي الأقرب وهو تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي وحتى يتحقق هذا الهدف الثاني لابد من تحقيق هدف ثالث إستراتيجي أيضاً وهو توحيد الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة في دولة واحدة. هكذا رتَّب نور الدين محمود أهدافه وأخذ ينفذها حَسب أولوياتها وكانت الأولوية بطبيعة الحال لهدف تحقيق الوحدة، ولكن سعيه لتحقيق الوحدة في المقام الأول لم يمنعه من شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنجة في الوقت نفسه [٧].

٢ – الصعيد العسكري:

على المستوى العسكري أفاد نور الدين محمود من نفوذ العباسيين للضغط على أمراء المشرق الإسلامي لمعاونته ضد أعدائه الصليبيين، فمعلوم أن الجيش النوري اعتمد أساساً على الدعم الحربي المقدم من أمراء المشرق [٨]، لاسيما في العراق ويلاحظ أن الثقل السياسي للخلافة أجبر أولئك الأمراء على المبادرة بتقديم عونهم الحربي، كما أن نور

(١) المصدر نفسه ص ٦٧.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.
(٥) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٦) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٦٤.
(٧) المصدر نفسه ص ١٣٨.
(٨) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.

الدين نفسه اتجه إلى مراسلة الفقهاء والمتصوفة في تلك الأقاليم من أجل الدعاية السياسية وتوضيح حاجته إلى العون الحربي من أولئك الأمراء على نحو مثل (ضغط شعبي) عليهم [١]، ونجد في كافة المعارك الحربية الكبرى التي خاض غمارها الجيش النوري، أشارت المصادر إلى مقدم قوات المشرق وعلى رأسها الأمراء حكام أربيل، وسنجار، منبج وغيرهم [٢] فالدور العباسي في استقدام جيوش المشرق وحث أمرائه على دعم نور الدين لا يستهان به [٣].

٣ – الصعيد الاقتصادي:

ارتبط الجانبان بعلاقات طيبة، فمعلوم أن العالم الإسلامي توقف ازدهاره على مدى سيطرته على محاور التجارة العالمية كذا منافذها، إذ شكلت التجارة معظم دخل العالم الإسلامي، ومن الثابت أن معابر التجارة العالمية بين الشرق والغرب وقعت في مناطق خاضعة لسيادة العباسيين، إذا قدمت التجارة من الشرق الأقصى وتدفقت سلعها عبر الخليج العربي إلى شمال العراق ومنه إلى شمال الشام ثم الإمبراطورية البيزنطية [٤]، وأوروبا كذلك ارتبط شمال الشام بشمال العراق بطرق تجارية [٥]، عديدة لاسيما بين حلب والموصل، وعملت الدولة النورية على انتعاش حركة التجارة بين العراق والشام، من خلال إزالة جانب من المكوس على التجار المسافرين بين الإقليمين لتشجيعهم على المتاجرة [٦]، فقد اهتمت الدولة النورية، بإنعاش التجارة مع مناطق العباسيين والإفادة من ثراء التجار العراقيين، وتشجيعهم على المتاجرة مع الأسواق الشامية، ولا شك أنها جنت من وراء ذلك مكوساً وفيرة [٧]، ومن جهة أخرى اتجهت الدولة النورية في بعض الأحيان إلى طلب المساعدة المالية من الخلافة العباسية للإنفاق على مرافق البلاد، ونجد مثالاً دالاً على ذلك، عندما وقعت أحداث زلزال عام ٥٦٥هـ/١١٧٠م، والذي اجتاح بلاد الشام، خاصة مدن حلب، وبعلبك، وحمص وحماة، وشيزر، وبعرين، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وتأثرت به مدينة حلب أكثر من غيرها بمظاهر الخراب والدمار[٨]، وعلى الرغم من أن نور الدين: أخرج من الأموال ما لايقدر بقدر [٩]، من أجل ترميم ما تهدم، إلا أن ذلك لم يكف فاتجه إلى طلب عون الخلافة، ففي نص أورده ابن الفرات شرح نور الدين للخليفة

(١) زبدة حلب (٣١٩/٢).
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٩.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٩.
(٥) الرحلة لابن جبير ص ٢١٠.
(٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٠.
(٧) المصدر نفسه ص ٧٠.
(٨) الباهر ص ١٥٥، دول الإسلام (٧٨/١).
(٩) كتاب الروضتين نقلاً عن فن الصراع الإسلامي ص ٧١.

المستنجد بالله ما حل بمناطق دولته من دمار بالغ على نحو أثر على دفاعاتها في مواجهة الصليبيين، واستصراخه أن يقدم له العون المالي اللازم [١]، ولا ريب في أن الخلافة العباسية كانت تحرص على دعم الدولة النورية مالياً، لتواجه أعداءها من الصليبيين، ولذلك فإنها بادرت بتقديم مساعدتها، والمرجح أن ذلك تم بسرعة واضحة لتدارك خطر تهدم أسوار وقلاع مدن الدولة النورية، خوفاً من هجوم صليبي مفاجئ عليها اغتناماً للموقف [٢]. ومن جهة أخرى قدمت الدولة النورية للخلافة العباسية الأموال اللازمة التي كانت بدورها تطلبها، كدليل على الولاء، ونجد أنها عندما أقدمت في بعض الأحيان على إنقاض المكوس المفروضة على النشاط التجاري، راسل نورالدين محمود الخليفة ليوضح له الأمر، وليطلب منه تقليل ما كان يحصل عليه من قبل[٣].

إن تلك العلاقات المالية تدل بوضوح على خصوصية علاقة الخلافة العباسية بالدولة النورية في بلاد الشام والجزيرة، وحرص الخلافة على دعمها وحمايتها من الخطر الخارجي بتوفير الدعم المالي لها عندما احتاجت إليه [٤].

٤ – الصعيد الثقافي والمذهبي:

كان الهدف المشترك الكبير بين نور الدين والدولة العباسية إعادة نشر المذهب السني في بلاد الشام ومصر والوقوف أمام المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي الذي كانت تتبناه الدولة الفاطمية في مصر، وكذلك الوقوف أمام المذهب الشيعي الإمامي، وكانت نظرة نور الدين محمود الاستراتيجية تعتبر وحدة العقيدة ركناً أساسياً في وحدة المسلمين السياسية ولتحقيق وحدة العقيدة في بلاده سلك طريق العلم والإقناع بالمنطق وإقامة الحجة والبرهان، فأنشأ المدارس التي تدرس الشريعة على حسب مذاهب السنة مركزاً على المذهبين الشافعي والحنفي، واستقدم أشهر العلماء والفقهاء للتدريس فيها ولتتولى الحوار مع علماء الشيعة على أساس الكتاب (القرآن الكريم) والسنة الشريفة ولكنه لم يتردد في اتباع طريق الحزم لوقف التجاوزات والمخالفات التي دأب الشيعة الرافضة على ارتكابها بحق بعض الصحابة، فأمر بمنع شتم أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وكان ذلك شائعاً في مجتمع الشيعة الرافضة في حلب، كما أمر بوقف الأذان حسب الصيغة التي استحدثها الشيعة (أضافوا فقرة حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر) [٥]، وإعادته حسب الصيغة الصحيحة التي عرفت في زمن الرسول ρ، وعندما حاول زعماء الشيعة في حلب عدم الامتثال لأوامر نور الدين عاقبهم ونفى بعضهم خارج حلب [٦]. فرضخوا

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص٧٢.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٧٢.
(٤) المصدر نفسه ص ٧٢.
(٥) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٦.
(٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٤.

وامتثلوا وتحوّل مجتمع حلب مع مرور السنين إلى مجتمع سني بالكامل، وكذلك باقي مدن بلاد الشام وإنما كان التركيز على مدينة حلب لأنها كانت مركزاً للشيعة الرافضة في بلاد الشام أما في مصر فقد بدأت عملية التغيير من خلال الدولة النورية - مباشرة بعد الاستيلاء عليها وكانت توجيهات نور الدين في هذا المجال واضحة لصلاح الدين لتغيير نظام القضاء من المذهب الإسماعيلي الشيعي الرافضي إلى المذهب السني وإنشاء المدارس السنية، وكان التغيير تدريجياً حتى بداية عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م عندما أعلنت نهاية الدولة الفاطمية وأقيمت الدعوة للخلافة العباسية، فصار التغيير سريعاً وشاملاً، فكانت المصالح المشتركة بين نور الدين والخلافة العباسية قربت بينهما وأثمرت علاقتهما الطيبة بما عاد عليهما وعلى المسلمين بالخير والفائدة العظيمة، فحركة الإحياء السني التي تبناها نور الدين محمود لقيت الدعم العباسي الكامل، ومن الممكن تصور أن الإنجاز الذي حققته حركة الإحياء السني في عهد الدولة النورية لم يكن من الممكن أن تتحقق بتلك الصورة من النجاح بدون المساعدة الرسمية الكاملة من العباسيين ومن الصلات التي وجدت بين الجانبين واستمرار اتصال المتصوفة العراقيين بالشاميين وقد ارتحل العديد من زعماء التصوف بين الإقليميين لينضم إليهم الأتباع والمريدون [١] وقد بينا ذلك فيما سبق ولله الحمد. ويتصل بالصلات المذهبية الاهتمام المشترك من جانب الخلافة العباسية والدولة النورية بالحج، والإعداد لموكبه وتأمين خطوط سيره، وقد كان هناك موكب الحجاج الشاميين وآخر للعراقيين اتخذ كل طريقه الخاص إلى الأماكن الإسلامية المقدسة، وحرص نور الدين محمود على أن يظهر أمام خلفاء بغداد بمظهر الراعي لتلك الأماكن، إذ عمل على تأمين طريق الحجاج الشاميين عن طريق تقديم الإقطاعات للقبائل العربية التي سكنت نواحي الأردن وشمال الجزيرة حتى لا تتعرض للحجاج وساهم في تعمير المسجد النبوي وعمل خندقاً حول الحجرة النبوية مملوءاً بالرصاص عام ٥٥٧هـ/١١٦٢م وكان هذا الاتجاه هدفاً مشتركاً بين الخلافة العباسية والدولة النورية وقال عنه ابن الجوزي: وكان سيرته أصلح من كثير من الولاة والطرق في أيامه آمنة والمحامد له كثيرة وكان يتدين بطاعة الخلافة [٢].

* * *

(١) المصدر نفسه ص ٧٥.
(٢) المنتظم (٢١٠/١٨).